الفصل الثانى

خارج نطاق الصحراء

شهد القرن السابع بزوغ نجم الإسلام ودُلُوف أوروبا المسيحية إلى العصور المظلمة حيث طمس القوط الغربيون آثار الحضارة والتكنولوجيا الرومانية في المنطقة الغربية وكانت الكنيسة على الجانب الآخر في الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي كانت تتخذ من القسطنطينية مقراً لها قد مَحَتْ كل ما يمت بصلة للعلم والفلسفة الإغريقية.

وكان من جراء ذلك أن وُصدت أبواب كل من قاعة المحاضرات في أثينا جنبًا إلى جنب مع متحف الأسكندرية، كما تعرض العلماء اليونانيون من الوثنيين والنساطرة المسيحيين للطرد من القسطنطينية؛ أو أنهم أنفسهم قد ارتحلوا إلى سوريا فرارًا من الاضطهاد الذي لاقوه.

وكان في تلك الفترة التي شهد العالم فيها خُبوت نور التعليم اليوناني أن سار العرب

obeikan.com

في طريقهم قدمًا ليصبحوا طلائع هذه الحضارة وما لبث هولاء العرب البسطاء أن بسطوا نفوذهم على نصف الكرة الأرضية، كما عملوا على إعادة الحضارة والعلوم اليونانية التي كانت قد لاقت حتفها إلى الحياة من جديد، وعلاوة على ذلك، فإنهم قد نقلوا إلى أوروبا- التي كانت تئِن تحت وطْأة الخمول والكساد- المعرفة والمهارات التي تبقَّت من العصر الكلاسيكي.

ويعود الفضل في إحداث هذا التغيير الحضاري بين هذا الجنس من البشر الذي نشأ وشبَّ في الصحراء إلى واحد من أبرز الرموز والشخصيات في التاريخ ألا وهو النبيُّ محمد (صلى الله عليه وسلم) والذي تختلف وجهات نظر العلماء الغربيين حول شخصيته ومصدر الوحي الذي كان يأتيه؛ غير أنهم مع هذا كله يعترفون بتأثيره الذي لم يسبق له مثيل على الجنس العربي والذي حَدَا بهم إلى تحقيق التقدم جراء الانصياع لتحفيزاته وتوجيهاته (صلى الله عليه وسلم).

ولد النبي محمد في عام 570 م من الميلاد حيث تجرع كأس اليُتْم في سن مبكرة، وقد قضى معظم طفولته وشبابه في رفقة عمه الذي كان يقطع مفاوز الصحراء الشاسعة بين شبه الجزيرة العربية وسوريا، وكان خلال هذه الرحلات أن سمع محمد عن رب آل إسرائيل وعن المسيح وعندما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم مبلغ الرجال، كان يقضي معظم وقته في التأمل الروحيِّ، وقد دفعته تلك الرؤيا التي رآها وهو في الأربعين من عمره أن يشعر أن الله اختاره ليكون نبيًّا، ومن ثم، بدأ في

نشر تعاليمه باعتباره مرشدًا وهاديًا لدين الإسلام (والذي يعني الاستسلام لله).

وكان جراء الرفض المبدئي للتعاليم والأخلاق الدينية التي جاء بها أن اضطر للهجرة من مكة إلى المدينة في عام 622 م، وتعرف هذه الحادثة بالهجرة والتي تؤرِّخ الآن لبداية التقويم الإسلامي، وكان بالقرب من المدينة التي تبعه فيها أناس كثيرون أن بدأ تأثيره يظهر جليًا، واستطاع محمد من خلال نشره لكتاب الله في كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية أن يجمع القبائل المتناحرة تحت راية واحدة وأن يضع هذا الجنس من البشر شبه الهمج على طريق الحضارة، وأصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) القائد الأوحد لأمةٍ عربية موحدة بعد انفتال عقدٍ من الزمان حتى أنه كان يستقبل السفراء القادمين إليه من الدول الأجنبية.

ولم يختف أثر هذا الدين الذي بثَّه النبي محمد في نفوس قومه إذ ظل هذا الأثر قائمًا حتى بعد وفاته (صلى الله عليه وسلم) في عام 632 م، لدرجة أنه كان في زيادةٍ مطردةٍ العام تلوَ العام جراء انتشار القرآن وهو الكتاب الكريم الذي يعتقد المسلمون أنه قد أوحي للنبي محمد من السماء، وقد ظل القرآن القوة التي عملت على إبقاء المسلمين على مسيرتهم والحفاظ على روح الوحدة التي أرسى أُسُسها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وذلك على الرغم من تربع الخلفاء المتعاقبين على سُدة الحكم وإزاحتهم عنها بغَضِّ النظر عن مهارة القادة العسكريين أو عجزهم.

obeikan.com

2

كانت الفوضى تعُم أرجاء الشرق الأوسط في هذه الآونة وهو الأمر الذي جعل غزوه أمرًا سهل المنال حيث كانت المنطقة يعتريها حالة من الفراغ السياسي والتي لم يكن لسكانها ذوي الأعراق المختلفة أي ولاءٍ حقيقي، ولذا فقد تعرضت المنطقة لغزواتٍ متتاليةٍ من قبل الآشوريين والفرس واليونانيين والرومان وبقية هؤلاء الذين استوطنوا المنطقة، وكان هذا الحمل الثقيل الناجم جراء الحرب المستمرة جنبًا إلى جنبٍ مع العبء الناجم عن فرض الضرائب الباهظة على القرويين قد غرس بذور الثورة وجعلها على أهُبة الاستعداد.

أما فيما يتعلق بسوريا والتي كان حكمها يتبع الحكم في القسطنطينية، فإن السخط السياسي والاضطراب الديني قد عَم أرجائها حيث اضطهدت الكنيسة الشرقية هؤلاء المسيحيين النساطرة والتي كانت عقيدتهم وعبادتهم بالنسبة لها ضربًا من الهرطقة، ومن ثم فقد نمت قوة هذا الجزء المضطهد من المسيحيين في العالم المسيحي بصورة أكبر في سوريا والتي فر وهاجر إليها من القسطنطينية العديد

من الطوائف فرارًا من القهر والاضطهاد.

وكان عند هذا الحد أن استجدت أمورًا تتطلب ضخ دماء جديدة وحماسات جديدة جنبًا إلى جنب مع إرساء نظام جديد لحياتهم؛ وهنا يجدر القول أن العرب قد وقفوا على أهُبة الاستعداد لتحقيق الازدهار على المستويات الثلاث المشار إليها آنفًا وذلك جراء الحماسة التي اعْترتْهم في الجانب الديني السياسي.

ولم يُضع أبو بكر- الخليفة الأول للمسلمين بعد النبي محمد- الوقت سُدى فقام بعدة غزوات كان من شأنها وضع الشرق الأوسط بأسره ومصر وشمال إفريقيا تحت إمْرة وحكم المسلمين،

وكان من جراء الهجوم الشرس الذي شنَّه المسلمون على الإمبراطورية الرومانية الشرقية أن فتحت الأخيرة أبوابها للمسلمين الذين تزايدت شراسة هجموهم أكثرَ من ذي قبل جراء الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي نعم بها المسلمون الفاتحون والتي كانت أفضل من مثيلاتها في هذه الآونة.

وكانت سوريا القريبة من شبه الجزيرة العربية والتى اعتراها الضعف نظرًا لحالة السخط والشقاق التي سادتها أول الأهداف المنطقية التي صوَّبَ العرب هجومهم نحوها، هذا بالإضافة إلى حالة الضعف التي اعترت الحكم الرومانى، فقد حظى المسلمون بميزةٍ عظيمةٍ تمثلت في أن الكثيرين من سكان هذه المنطقة كانوا عربًا من نفس عِرق هؤلاء المسلمين غير أنهم قد هاجروا إلى الهلال الخصيب بانفتال

قرونٍ عدة، ومن ثم فإنه عندما انتقل المسلمون إلى سوريا زاد عدد أتْباعهم الجدد من بين هذه الجموع التي تشترك مع الفاتحين في الأصل العربي وامتثالاً لتعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم) حرصت جيوش المسلمين على عدم الإساءة إلى الريف وسكانه، وفي حقيقة الأمر، كانت أوامر الخليفة علي بن أبى طالب فيما يتعلق بالمعاملة الطيبة للمدنيين (غير المقاتلين) بمثابة الخطوة الإنسانية الأولى في تاريخ الحروب.

وشهدت منطقة الشرق الأوسط حالةً من الاستقرار لم تعرفها من قبل إذ تحسنت أحوال الفلاحين جراء تقسيم الأراضى بشكل ديمقراطى وبطريقة جديدة جنبًا إلى جنبٍ مع عدم إثقال كاهلهم بفرض الضرائب الباهظة، وعلاوة على ذلك فقد اعتنق الكثير من المجندين بجيوش المسلمين الدين الإسلامي بُغية إعفائهم من الضرائب ومن ثم فإنهم باعتناقهم دين الإسلام قد أُعفوا من دفع الضرائب بالإضافة إلى أنه سُمِح لهم بالحصول على نصيب من غنائم الغزوات التى يشتركون فيها.

وقد اكتسب الإسلام زخمًا عظيمًا زاد من قوته العسكرية بسرعةٍ فائقةٍ وخضعت دمشق لحكم العرب إبان سقوطها في أيديهم في عام 635 م ولم تلبث كل من فلسطين وفينيقيا أن خضعتا لحكم العرب.

وكانت مصر هي الوجهة التالية التي وجه العرب جيوشهم إليها، وعلى غرار سوريا، فإن الاضطهاد الذي تعرض له المصريون جراء كل من الحكم الروماني القاسي

وتعصب الكنيسة الرومانية الشرقية قد جعل هذه الدولة ذات الحضارة القديمة فريسة سهلة المنال، حيث قام عمرو بن العاص- هذا القائد الفذ- على رأس قوةٍ قوامها 4000 مقاتل بالاستيلاء على الضفة الشرقية للنيل وفي وقتٍ لاحقٍ، ونتيجة لفرار جزءٍ كبيرٍ من جنود الجيش المصري تمكن «عمرو» (بن العاص) من السيطرة على كل مصر باستثناء مدينة الأسكندرية والتي سقطت في أيدي المسلمين في عام 641 م بعد أن فرض المسلمون عليها حصارًا محكمًا استمر زهاء الأربعة عشر شهرًا، وكانت الأسكندرية مذ أنشأها «الإسكندر» عام 330 قبل الميلاد تعد أعظم مراكز الحضارة اليونانية قاطبةً.

ويرجع الفضل إلى عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين في ضم إمبراطورية الفرس الجبارة والتي كانت لا تزال القوة الوحيدة المتبقية في الشرق الأدنى، وتساورُني الشكوك في قدرة المسلمين على تحقيق هذا النصر بدون الاستعانة بالجنود السوريين- الذين سبقت الإشارة إليهم- في صفوفهم حيث لم يحصل المسلمون على العتاد العسكري الذي كانوا في أَمَسِّ الحاجة إليه وحسب، بل إنهم أيضًا قد دعموا صفوفهم بمقاتلين على مستوى جيدٍ من التدريب على فنون القتال. وفي عام 635 م، شن «خالد بن الوليد» الملقب بـ «سيف الله» - وهو أحد أعظم القادة العسكريين الذين أنجبهم الإسلام - حملات عسكرية على عدة مراكز متقدمة في إمبراطورية الفرس مترامية الأطراف فقد تمكن «خالد» من خلال

النصر الذي حققه في الحيرة من أن يبسط يده على سائر المنطقة الواقعة شمال نهر الفرات وبعد أربع سنواتٍ من الاستيلاء على الحيرة، ولى العرب شطرهم تجاه دولة الفرس نفسها حيث قاموا بفتحها في معركة «نهاوند» في عام 641 م والتي تعد واحدة من هذه المعارك الحاسمة في التاريخ البشري. وكان من جراء هذه المعركة أن هزمت إحدى القوى الكبرى والتي على إثرها دانت دولة الفرس بالولاء للمسلمين وبهذا فقد استطاع العرب في غضون عقود قليلة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يبسطوا سيطرتهم على منطقة مترامية الأطراف امتدت من بوابات الهند إلى مضيق جبل طارق.

obeikan.com

obeikan.com

3

وكانت هذه المعجزة البادية للعيان حصيلة أسباب عدة؛ بعضها قد أشير إليه من قبل، غير أن العامل الذي يعد أكثر أهمية من غيره يتمثل في الحماسة الدينية التي اعترت المسلمين في هذه الأونة وكان في حياة النبي أن أصبح للمسلمين جيش قوي عرمرم هو الذي صنع الانتصارات واحدة تلو الأخرى بعد وفاة النبي- صلى الله عليه وسلم وإلى جانب هذه الحماسة الدينية التي اعترت العرب، كان هناك قوةً داخلية متجسدة في همتهم العالية وجرأتهم؛ وهي القوة التي ساعدتهم في كل حروبهم العسكرية لدرجة أنهم قد خالوا أنفسهم الجيش الذي لا يقهر ولم يمنعهم خوفهم من الموت من مواصلة القتال لإعلاء كلمة الله حيث أن «محمدا» قد أخبرهم أنه من يسقط شهيدا في هذه الحروب المقدسة سوف يحظى بالجنان، فعلى صعيدٍ آخر وعندما اشتكى أحد الأعراب من حرارة الصيف القائظ في إحدى الغزوات، نظر إليه «محمد» محذرًا وقائلاً: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا.»

ولابد أن نَعِي أن هذه الانتصارات لم تكن عربية قحة حيث إن هناك رجال ذو خلفيات

عرقية وديانات مختلفة قد انضموا إلى صفوف الجيوش الإسلامية وذلك لما تمتع به مقاتلوا الصحراء ذوي الجلد هؤلاء من قوة جذب لم تكن معروفة بين أكثر الأجناس المتقدمة والمثقفة التي حاربها هؤلاء العرب، حقاً لقد كان لدى العرب القدرة على القتال حتى الموت في سبيل إعلاء مبادئهم.

obeikan.com